القديس الفتى

دومنيك سافيو

إليكم أيها الشبان

أدلى يوما قداسة الحبر الأعظم بيوس الحادي عشر إلى أحد رؤساء الرهبانية السالسية بالتصريح التالي: ((أكثر من الصلاة الى الله طالبين إليه تعالى أن يجعل في صنع المعجزتين المفروضتين لتطويب دومنيك سافيو لأني بحاجة لأنى بحاجة إلى رفع هذا الفق إلى شرف الهياكل فأقدمه مثالا للشبيبة، ينسجون على منواله.))

و قد حقق الله رغبة الأب الأقدس فأثبت قداسة تلميذ القديس يوحنا بوسكو بعجائب كثيرة أجراها تلبية لشفاعته. و بعد أن طوب خليفة البابا بيوس الحادي عشر دومنيك سافيو سنة 1950، أغلن قداسته في 12 حزيران 1954 باحتفال مهيب أقيم في ساحة كنيسة القديس بكرس الفسيحة، لكي تستوعب ذلك الحشد الكبير الذي قدم إلى رومية للاشتراك في تلك الحفلة الباهرة.

و قد ارادت الكنيسة بهذا الإعلان الرسمي ان تعظم و تمجد، قبل كل شيء، الله " العجيب في قدّيسيه" الذي أدهش العالم ببدائع النعمة التي صنعها بهذا الفتى(النحيف الهزيل الذي جمع إلى ضعف جسده نفساً شهمة قدمت ذاتها ضحية طاهرة لحب المسيح) (بيوس الثاني عشر). و أرادت ثانياً أن تذيع في العالم عظمة هذا الفتى الأدبية الذي استطاع، بإرشاد مرّبيه القديس يوحنا بوسكو ان يرتفع في مدة وجيزة إلى أعلى درجات القداسة. و ارادت الكنيسة أخيراً أن تقدم هذا الفتى البطل إلى الشبيبة المسيحية قدوة كاملة للحياة و الكمال المسيحيين.

إن دومنيك سافيو لهو مثال للحب النبوي الودود المحترم للوالدين و قدوة حسنة للطالب المطيع المحب لعلم و المعرفة، و هو الذي نشر في محيط الشبيبة الذي عاش فيه لواء

الفضيلة و القداسة. و لقد كانت التقوى و المحبة و الغيرة الرسولية و الطهارة أحب الفضائل على قلبه.

ان هذا التاريخ الوجيز لحياة دومنيك سافيو قد خصكم به، أيها الشبان، شاب مثلكم يشعر في قلبه بنداء ملحّ إلى الرسالة بينكم. فأقرأوها إذن بشغف و تأملوها ملياً، فإنها ترشدكم بطريقة عملية واضحة إلى السبيل الذي يجب عليكم أن تسلكوه لكي تبلغوا أنتم أيضا إلى الكمال المسيحي الذي دعيتم إليه.

القدس في 1955/2/1

الأب يعقوب يلترتّي

من كهنة البطريركية اللاتينية الأورشليمية.

"يظهر ان الفضائل قد ولدت معه"

شارل سافيو البيطار وروزا أكلياتا هما الوالدان اللذان أعدهما الله لينعم عليهما بطفل يصبح قدوة يتعظ بها الصبيان. فمنهما ولد دومنيك سافيو في صباح اليوم الثاني من نيسان سنة 1842 في بلدة ريفا دي كياري و هو الثاني من عشرة أولاد. و لما كان ابواه من خيرة المسيحيين الذين لا يرضون بأن يبقى بنوهم مدة طويلة تحت سلطة الشرير، قدماه في عشيّة ذلك النهار ليصطبغ بمياه المعمودية. ودعي اسمه دومنيك الذي تأويله: خاصّة الرب او ما يخص الرب، فكان خير اسم لخير مسمّى.

حقاً ان دومنيك، كما سيتبين لك من هذه الصفحات، قد حقق في ذاته تمام التحقيق معنى اسمه. فقد تملّكت النعمة على قلبه منذ حداثة سنة كما شهد الأب بوسكو إذ قال عنه: يظهر أن الفضائل قد ولدت معه.

ولا يعني هذا أن دومنيك عاش عيشة قداسة سهلة، خارقة العادة، بحيث لا يصحك اتخاذه نموذجاً للسير على خطواته. كلا فقد اعترض سير حياته ما يعترض سير حياة جميع الصبيان من الجهاد و التجارب الآلام و الصعاب و الساعات الحرجة. إلا أن الفرق بينه و بينهم هو أنه لم يستسلم قد لها و لم يدعها تتغلب عليه، و هذا ما يجعله مثالاً حياً مناسباً لفتياننا.

ترعرع دومنيك في ريفا أولاً ثم في موريالدو سائراً طبق أمثلة والديه الصالحة، وقد كان جلّ اهتمامهما ان يرضعاه لبن التربية المسيحية الصرف. زد على ذلك أنه كان لطيف الخلق، طيب القلب. و دليل على ذلك استقباله لأبيه عند عودته من العمل. فكان حالما يراه، يهرول نحوه فيمسكه بيده و يقفز بين ذراعيه قائلاً: إنك تعب جداً، يا والدي العزيز، أليس كذلك؟ إنك تتعب كثيراً من أجلي و أنا مع ذلك لا أصلح إلا لأن أسبب لك القلق، بيد ابي سأطلب إلى الله أن يزيدك صحة و عافية و أن يجعلني صالحاً. و هكذا إلى أن يصلا إلى البيت، فيقدّم لوالده كرسياً ليجلس و يستريح بينما يأخذ هو في مؤانسته بكلمات رقيقة عذبة و يداعبه و يلاطفه...

و ما أن بلغ سنته الرابعة حتى أخذ يتلو وحده صلوات الصبح و المساء فضلاً عن صلاة الملاك التي كام يتقنها أيضاً. و كثيراً ما كان يختلي لمفاجأة أبيه السماوي، و ما كان يقدر أن يجلس لتناول الطعام دون أن يستمطر بركات الله بصلاته.

من أمثلة ذلك أن أكبّ والده يوماً على الأكل و قد غفلا عن تلاوة الصلاة المعتادة. فصرخ بهما الصبيّ قائلاً : " أبي، إننا لم نستنزل بركة الله علة طعامنا! " و في الحال رسم إشارة الصليب و ابتدأ هو نفسه الصلاة.

و في احدى المرّات عرّج احد الأصدقاء على البيت و دعي إلى تناول الطعام. فقبل الدعوة و جلس إلى المائدة ثم شرع يأكل دون أن يتلو أية صلاة. أما صاحبنا، فإذا لم يجد إلى تنبيهه سبيلاً، قام عن المائدة دون أن ينطق ببنت شفة و انفرد في إحدى زوايا البيت يلعب. و لما سئل فينا بعد عن سبب ذلك أجاب : " لم أجرؤ أن أجلس إلى المائدة مع رجل يأكل على طريقة الحيوانات! " .

"لقد كان ذاك أسعد أيام حياتي"

كان دومنيك يتقدم كل يوم في التقوى و الفضيلة و يزداد شوقاً إلى الهه.

فمنذ صغره كان يرافق والدته مراراً إلى حضور الذبيحة الإلهيّة. و سرعان ما استظهر كتاب التعليم المسيحي، إلا أن ذلك لم يزده إلا اشتياقاً و رغبة في التقرب من هذا الإله الذي يقدم امام عينيه ذبيحة للآب السماوي.

ولما ترعرع أخذ يبكّر كل يوم في العودة إلى الكنيسة حيث يزور ربّه. وقد بالغ يوماً في التبكير على غير انتباه، و لم يفطن لذلك إلا عندما وصل إلى الكنيسة إذ وجد الباب لا يزال مقفلاً. فما العمل؟ كلا، إنه لن يرجع غلى البيت، لكنه، بالرغم من الثلج الذي كان يلبس الأرض حلّته البيضاء جثا على ركبته دون تردّد و استغرق في الصلاة...

و بقي على هذه الحال إلى أن فتح الأب تسكاّ ، خوري الرعية، باب الكنيسة. فسأله الكاهن بدهش

- ما تعمل هنا مِنُت؟

-فأجابه بكل بساطة: وصلت باكراً جداً، فأخذت أصلي

-تعال إذاً نهيئ المذبح معاً...

هذا و ما زال حب دومنيك لحبيس بيت القربان يزداد يوماً عن يوم. فمنذ الخامسة من عمره تعلم خدمة القداس. فما أجمل منظره وهو ينتصب على طرف قدميه لينقا كتاب القداس!

أحب دومنيك الهيكل إلا أن حبه لربّ الهيكل الساكن فيه كان أعظم: فأفكاره و آماله كلّها متجهة نحو هذا الضيف الكريم، وما أعظم ما يكون فرحه لو يتاح له أن يقبله في بيت قلبه...

لكن أنّى له هذا و العادة في تلك الأيام، تقضي بأن يبلغ السنى الحادية عشرة على الأقل ليتمكن من التمتع بزيارة ربّه الأولى. إلا أن الأب تسُكّا لم يكن من الذين يسلمون بهذه الأفكار. فلما رأى دومنيك متحليً بجميع المؤهلات لتناول القربان الأقدس، و اطّلع على ذكائه و معرفته لمبادئ الديانة بل على تقواه و تعطشه للقربان، عند ذلك عرض أمره على إخوته في الكهنوت. فأجمعو على قبوله للمناولة الأولى. فما كان أسعد دومنيك إحدى أمسيات الصوم الأربعيني إذ بشّره

الكاهن بقوله: " يمكنك أن تستعد للمناولة الأولى التي ستجري يوم عيد الفصح". رقص قلب دومنيك فرحاً لدى سماعه هذه الكلمات وهرول إلى البيت ينقل البشرى إلى أمه. ومذ ذاك راح يهيئ نفسه لذلك اليوم المبارك.

و عشية ذلك النهار السعيد رمى بنفسه بين ذراعي والدته قائلاً لها: " يا أميمة، غداً سأتناول المناولة الأولى، فأرجو منك أن تغفري لي ما أسأت به إليك، وها أنا أعدك بأن أكون من الآن فصاعداً ابناً عاقلاً و تلميذاً مطيعاً نشيطاً". أما أمه، وقد أذ منها التأثر كلّ مأخذ، فلم يكن منها إلا أن ذمّت ابنها الحبيب إلى صدرها قائلة له و الدموع تترقرق في مآقيها: " لا تخف، عزيزي دومنيك، فقد غفرت لك كل شيء. ألا أطلب إليه تعالى أن يحفظك دائماً طاهراً نقياً، وصلّ أيضا لأجلي ولأجل والدك".

و لما تبلج فجر أحد الفصح من تلك السنة 1849، ذلك اليوم الذي سيقول عنه دومنيك فيما بعد : " لقد كان أسعد أيام حياتي" ، نهض باكراً و توجّه إلى الكنيسة. ومع أن الاحتفال لم يدم أقل من خمس ساعات، لم يشعر دومنيك بطوله، بل بدا له قصيراً. فبينما خرج الجميع من الكنيسة كان لا يزال جاثياً في مكانه، ولم يبرحه إلا حين همس خوري الرعية في أذنه قائلاً: " هيّا، دومنيك، فوالداك ينتظرانك في الساحة". حينئذٍ أفاق دومنيك من ذهوله بربّه ومحادثته معه، تلك المحادثة التي وعد فيها سيّده وضيفه الإلهي أربعة وعود تشفّ عن نفس طاهرة تلتهب حباً ليسوع و مريم:

1. سأعترف مراراً و سأقترب من سر القربان الأقدس كلما سمح لي معلّم اعترافي بذلك.
2. أقصد أن أقدّس أيام الآحاد و الأعياد.
3. أما صديقاي فهما يسوع و مريم
4. الموت ولا الخطيئة.

حقاً إن دومنيك قد حفظ بالتمام هذه المقاصد الأربعة التي وعد حبيبه الإلهي بالمحافظة عليها يوم مناولته الأولى. إنّها مقاصد جعلته جديراً بأن يشار إليه كمثال يقتدي به الكبير و الصغير على السواء! ...

إن كل أحد من هذا الخبز يحيا إلى الأبد... فالذي يأكلني يحيا هو أيضاً بي (يوحنا :6،52،58)

ذوقوا وانظروا ما أطيب الرب (مز :33،9)

"يشق على ترك الدرس و الكتب"

إنّ أول درس تلقّاه قدّيسنا الصغير هو مبادئ الديانة، وذلك في حضن والدته التي اسقته مع حليبها لبن التقوى و الديانة الخالص.

فسرعان ما استظهر صلوات الصبح و المساء وأخرى غيرها. لكنه لّما قوي على الخروج وحده من البيت صار يقصد يوميّا مدرسة الأب تسُكّا المحاذية للخورنية. وما أن تمكن من القراءة و الكتابة حتى طبع في ذهنه التعليم المسيحي، ذاك التعليم الذي أفرغت أمه أهم مبادئه في عقله منذ طفولته سواء كان بمحادثاتها البسيطة أو بالإجابة على أسئلته العديدة.

وبعد ان اقترب دومنيك من المائدة المقدسة للمرّة الأولى، أي في السابعة من عمره، داوم على الذهاب إلى المدرسة. فعند ذاك لفت خوري الرعيّة أنظار والدي دومنيك إلى مدرسة كسْتِلْنووفُه .

لكن هنالك عقبتين تحولان دون ذهاب دومنيك إليها: فهي تبعد عن البيت نحو اربعة كيلومترات و قطعها يسبب عناءً و تعباً شديدين لصحة دومنيك المنحرفة، ثم إن أهله فقراء فضلاً عن أن الله قد رزقهما ولدين آخرين. من يا ترى يزيل هاتين العقبتين فيذهب دومنيك إلى المدرسة!

فكثيراً ما سمعته أمه يتأوّه قائلاً " آه يا ليتني عصفور صغير فأطير بمزيد الفرح إلى صباحاً ومساءاً".

- فتجيبه أمه : لكن بما أنك لست عصفوراً عليك أن تعدل عن فكرتك هذه. ثم كيف تعمل وصحتك نحيفة ناحلة؟ ألا انظر ما أضعف يديك!

- دعيني أجرّب، يا أماه: فالمشي يقوي رجليّ.

- أمصرّ أنت على ذلك؟ كلا، لن تقوى على قطع ستة عشر كيلومتراً كل يوم.

- ولكني اليوم كبير. فعمري عشر سنوات!

- مهما يكن من أمر، دعيني أجرّب. فيشق علي أن أترك الدرس و الكتب...

هذا جدال كثيراً ما دار بين دومنيك ووالدته إلى أن جزم والده يوماً إذ قال :

فلنجرّب، و إن عجز عن ذلك اوقفناه عن مواصلة الذهاب إلى المدرسة. هكذا تم الاتفاق فصار دومنيك يقصد يومياً المدرسة و حذاؤه على كتفه: فالطقس لطيف و أهله فقراء فعليه بالتوفير قدر استطاعته.

لكن حرّ الصيف في بعض أيام تموز و آب كان شديداً و السير في الظهيرة، في شمس تصب على الأرض أشعتها المحرقة، قاس جداً، زد على ذلك ان تلك الطريق لا تخلو من الأخطار.

و قد صادف دومنيك يوماً رجلاً سأله قائلاً : " ألا تخاف، أيها الصغير، من السير وحدك في هذه الطريق المقفرة؟

- لست وحدي، يا سيدي، فملاكي الحارس يرافقني دائما
- أولاً يشق عليك السير اربع مرات على هذه الطريق في الحر اللافح؟
- ليس من مشقة في سبيل إرضاء سيد يكافئ مكافأة حسنة.
- ومن هو هذا السيد؟
- هو الله الجوّاد الذي يكافئ حتى كأس الماء البارد المعطى حباً له.

لم يكن دومنيك وحده يقطع تلك الطريق ذاهباً إلى المدرسة.

فهناك تلاميذ آخرون غيره، إلاّ أنهم كثيرا ما يعرّجون على نهر البو المجاور بغية السباحة. فحدث يوماً ان دعا أحدهم دومنيك ليشاطرهم تسليتهم. فلحق به.

لكنه لما رأى ما وقعت عليه عينه من المناظر و سمع ما طرق أذنه من الكلمات البذيئة تنحّى عنهم و عاد إلى البيت وقد أندى عرق الحياة و الخجل جبينه.

وقد حاول رفقاؤه ثانية ان يحتذوه معهم.

- ألا تريد ان تأتي معنا، يا دومنيك ؟

- كلا.
- ولماذا؟
- لأني لا أعرف ان اسبح، و أخاف على نفسي من الغرق.
- لا تخف. تعال معنا، ونحن نعلمك السباحة. تعال وانظر نشق الماء كالسمك، ونقفز فيه كالضفادع!
- ولكن، أليس من إثم في مجابهة خطر كهذا ؟
- و أي إثم في ذلك؟ ... ثم إذا كنت لا تريد ان تسبح، فأقلّه أن تنظر.
- دعوني إذا أذهب لأستأذن والتي أولاً.
- ويحك، أيها الغبيّ. حذران ان تخبر امك بذلك. فستخبر والدينا ويا ويلنا من العصا!
- إنكم تعلمون إذاً ان عملكم هذا ليس حسناً !... ثم إذا اردتم ان اصرّح لكم الحقيقة قلت اني ذهبت مرة، إلا اني قصدت ألا أعود ثانية لأني رأيت وسمعت ما لا أحب. ..

فضحك منه الجميع، لكنهم لم يعودوا يقترحون عليه مثل هذا...

واظب دومنيك على الذهاب يومياً إلى مدرسة كستلْنوفة مدة اربعة اشهر، لكن صحته ما عادت تتحمل أكثر من ذلك.

ولكن لحسن حظه ان والديه رجعا في تشرين الأول من سنة 1852 إلى مُندونيُه ، حيث لا تبعد المدرسة عن البيت إلا خطوتين.

فأكب على الدرس بكل قواه، وكان في مندونيه مثله في كستلنووفو تلميذاً مثالياً احرز قصب السبق متفوقاً على جميع اقرانه في الدرس و السلوك و يتحقق في مندونيه ما قاله عنه مدحاً ألورا معلمه في كستلنووفه : " منذ دخوله المدرسة حتى خروجه منها كان متفوقاً في تقدمه ونجاحه. أما هذه النتيجة فأنسبها، فضلاً عن ذكائه الحاد، إلى ميله وحبه للدرس و إلى فضائله الراسخة".

هكذا كان دومنيك كلما تقدّم في السن تقدم في الفضيلة أيضاً : فها هو الآن في مدرسة مندونية لا يبلغ من العمر إلا الحادية عشرة وقد غدا قدوة لأقرانه. فهذا الصبي الصغير، ذو القامة القصيرة و الشعر الأسود الضارب إلى الشقرة الذي يكلل جبينه الواسع، ذو العينين الزرقاوين الناظرتين بلطف وعذوبة، ذو الوجه الأصفر الذي تنعشه دوماً ابتسامة خفيفة، هذا الصبي كانت ظواهره كلّها تنمّ عن هدوء في حزم وشعور مرهف حاد يقوده اللطف

والحب. وما ذلك لعمري إلا مرآه لنفس تلك الأم التي أرضعته مع لبنها قسماً من نفسها.

وهنا لا بدلنا من سرد حادث جرى لدومنيك في مدرسة مندونية، وهو يوضح لنا هذا الهدوء وهذين اللطف والمحبة.

في ليلة من ليالي الشتاء تساقط الثلج غزيراً ، وما ألذ اللعب بالثلج لو أمكن تمديد وقت اللعب! وسرعان ما وجد بعض التلاميذ الحلّ لهذا المشكل. فراحوا قبل افتتاح المدرسة يملؤون الموقد ثلجاً وحجارة اتوا بها من وادي البو. ولما جاء الاستاذ ورأى ذلك فهم للحال مرامهم، ففار فائراً وهاج هائجة وهرول إلى الملعب صارخاً بالأولاد : " من فعل هذا ؟" فلم يلقَ منهم إلا الصمت، لكنه كرّر سؤاله بلهجة مليئة بالوعيد فتجاسر احد الصغار الذين كانوا حوله وتمتم " سافيو"

وهنا بهت الأستاذ وحلّ عنده الدهش والاستنكار محلّ الغضب. كلا، لم يخطر بباله قط أن سافيو، خير تلاميذه، يأتي عملا فظيعاً كهذا!! وزاد دهشة عندما رأى سافيو لم يبد أي تأثير بل بقي على هدوئه المعتاد. فقال له "كلا، لم أفكر قد بأنك ترتكب منكراً كهذا! إنك تستحق الطرد... لحسن حظك أنها المرة الأولى وإلا ...

اعمل جهدك ان تكون المرة الأخيرة إلى المدرسة حالاً. سنبقى دون نار إلى الغد. أما انت يا سافيو، فستظل راكعاً بين اقرانك قصاصاً لك.

كان في وسع دومنيك أن يبرئ ساحته بكلمة يتفوه بها، لكنه اختار الصمت. وفي الغد اكتشف المجرمون الحقيقيون. فشق على الأب كولييرو أنه اقتص من دومنيك في حين انه بريء من التهمة التي رمي بها. ولما سأل دومنيك عن سبب صمته أجابه ببساطة: " لأني لو كشفت اسماء المذنبين لكانوا طردوا لا محالة. بينما أملت الصفح لي لأنها المرة الأولى. ثم أني افتكرت عندئذٍ بمخلّصي الذي لزم الصمت عندما رشق بتهم فظيعة. ولذا لم أفه بكلمة" .

ألا سقيا ورعيا لك، أيها التلميذ البريء. بم نعجب، يا ترى، هل بحبه لمخلّصه أم لإخوته؟ بصفحه المسيحي ام باقتدائه بالمسيح؟ ...

ومن سقاكم من كأس ماء باسمي ... فالحق أقول لكم إنه لا يضع أجره (مرقس 9؛40)

الأمين في القليل يكون أميناً في الكثير (لوقا 16؛10)

كان سافيو (حكيماً، عاقلاً) اسماً وفعلاً (الأب اللورا معلم دومنيك)

"اصنع مني ثوباً جميلاً للرب"

ما زال الأب كولييرو يراقب دومنيك في المدرسة حتى اطلع على صدق فضيلته وسموّ طهارته وقداسته. زد على ذلك ان دومنيك كان يفاتحه مراراً بمكنونات صدره. فاستدل الكاهن من تقواه وحبه للتضحية والدرس، من نقاوته وميله الشديد إلى الكنيسة، استدل على ان رسالة هذا الفتى هي رسالة تخليص النفوس عن طريق الكهنوت. ولكن أنّى لأهله وهم الفقراء أن يقوموا بنفقات الدروس الكهنوتية. عندئذٍ فطن الأب كولييرو لأحد رفقائه في المدرسة الإكليريكية، لذاك الذي كرّس حياته للشبيبة وفتح لها مدرسة صناعية ومدرسة ثانوية صغيرة يتخرجون منها. لعل الأب يوحنا بوسكو، هذا الكاهن الغيور، يقبل دومنيك بين تلاميذه.

قصد الأب كولييرو ذات صباح مدينة طورينو وحدث الأب بوسكو عن دومنيك واطنب في مديحه : " قد يكون في مدرستك من يضاهيه، لكنّي لا أظن أن بينهم من يفوقه ذكاء وفضيلة. ستتحقق بنفسك انه لويس غنؤاغا الثاني".

فأجابه الأب بوسكو وعيناه تبرقان أملاً : قل إذاً لوالده أن يأتيني به إلى موريالدو يوم الاثنين قبل عيد سيدة الوردية. وهكذا تم الاتفاق بينهما.

ولما كان اليوم العشرون من شعر تشرين الأول سنة 1954، إذ كان الأب يوحنا بوسكو في عطلة مع تلاميذه في موريالدو، إذا بفتى يتجه نحوه مع والده. فهبّ الكاهن لملاقتهما وقد ذهل من الهدوء الذي كان يشع من وجه الصبي. ثم دار بينهما هذا الحديث:

- من انت؟ ومن أين أتيت؟

- انا دومنيك سافيو الذي حدثك عنه الأب كولييرو خوري طائفتنا في قرية مندونية.

ثم تحدّثا قليلاً عن حياة الصبي ودروسه وامياله، فنشأت منذ ذلك الوقت علاقات المودّة بينهما. أخيراً سأل دومنيك مستفهماً:

- "إذاً أبت، ماذا رأيت؟ هل تأخذني معك؟ "

- لا أرفض لأنه يلوح لي أن فيك قماشاً حسناً.

- ولم يصلح هذا القماش؟

- لأن نخيط منه ثوباً جميلاً نقدمه للرب.

- أنا القماش، فكن أنت الخياط ، خذني إذا واصنع مني ذلك الثوب الجميل.

- فاعترض الأب بوسكو وقد ذعر للونه الشاحب: لكني أخاف أن يحول ضعف مزاجك دون مواصلة الدرس.

- لا تخف، ابت، فالربّ الذي قواني إلى الآن سيقويني حتى النهاية.

- وفي النهاية، ماذا تعمل ؟

- إن شاء الله، انخرط في سلك الكهنوت.

- حسن والآن ارني مقدرتك على الدرس. إليك هذه الصفحة وادرسها وغداً تعيدها أمامي.

قال هذا وترك الفتى وشأنه وراح يخاطب والده. لكن لم تمض عشر دقائق حتى اقبل دومنيك والكتاب بيده وقال : " ابث، إن شئت، فما أنا أُعيد لك امثولتي الآن" وتلا عن ظهر قلبه الصفحة المعنية دون أيما رعشة أو تردّد. واراد الكاهن أن يعرف إن كان فهم معناها، فطرح عليه بعض الأسئلة أجاب عليها الفتى اجوبة صائبة اعربت عن أنه لم بفُته شيء من مرمى كلام الكاهن. فحينئذٍ هتف له الأب بوسكو قائلاً:

-نعمًا، نعماًً! لقد قدمت ساعة اعادة امثولتك. فها أنا اقدم ساعة قبولك عندي. أنت منذ الآن من ابنائي الأحبّاء. فاطلب إليه تعالى أن يساعد كلينا لعمل مشيئته المقدسة" .

فانحنى دومنيك على يد الأب يقبّلها مراراً مظهراً فرحه وشكره ثم قال " سأبذل جهدي كي لا تتشكّى من سلوكي أبداً "

في اليوم التاسع والعشرين من شهر تشرين الأول وصل دومنيك إلى بيت الأب يوحنا بوسكو في طورينو. قرع باب غرفة الأب ودخل فاستقبله هذا بعطفه وابتسامته المعتادة وأخذ يسأله عن اخبار والديه وعن كاهن رعية مندونية بحيث أخذ الصبي، قليلاً قليلاً، يفتح قلبه لهذا الذي اصبح منذ تلك الدقيقة مربية وأباه. ثم انتبه الأب إلى انه قد شُغل بال دومنيك بعبارة لاتينية مكتوبة فوق مكتبة فقال له : أرني مقدرتك في اللغة اللاتينية. اشرح لي هذه الكلمات الخمس:

حاول دومنيك ترجمتها فتوقّف بعد الكلمة الثالثة فهّب الأب إلى مساعدته وقال : " ها أنا أساعدك على إنهائها : يا رب، أعطني النفوس، وخذ الباقي" ثم شرح له معناها. فأضاء وجه الفتى وهتف :

- فهمت، فهمت. ليست تجارتكم هنا بالدنانير، بل بالنفوس. أؤمل إذاً ان يكون لنفسي نصيب من هذه التجارة.

- هذا كله منوط بك، يا دومنيك ، لكن اذهب الآن إلى الملعب وتسلّ مع الطلاب فهم لطفاء ودعاء.

قبل دومنيك يد الأب بوسكو ونزل إلى الملعب ونفسه عائمة في بحر من الفرح وأخذ يلعب مع الأقران فقد غدا من تلاميذ المعهد...

"أشكو خيراً كبيراً"

دخل دومنيك معهد الأب يوحنا بوسكو ومنذ ذلك الوقت ارخى العنان لنفسه التوّاقة إلى كل ما هو خير. فأخذ يسير سيراً حثيثاً في طريق القداسة والكمال، عاملاً بمشورة المعلم الإلهي القائل: " كونوا كاملين كما أن أباكم السماوي هو كامل" (متى:5،48) ولم يضلّ السبيل لأنه لا يتقدم خطوة دون أن يستشير الأب يوحنا بوسكو، كما كان يتبع مشورته في دروسه وسلوكه مع رفقائه ومع الجميع.

وفي ذلك الحين كان العالم الكاثوليكي ينتظر على أحرّ من الجمر اليوم الثامن من شهر كانون الأول من تلك السنة 1854 الذي عُيّن لتحديد عقيدة الحبل بمريم العذراء بلا دنس الخطيئة الأصلية. وما أن بزغ فجر ذلك النهار حتى هزّت العالم رجّة الفرح والغبطة للحادث التاريخي الذي يجري فيه. وقد اشترك في هذا الفرح بنوع خاص تلامذة معهد الأب بوسكو في طورنيو. كيف لا وقد اظهرت العذراء ذاتها في تلك السنة شفيعة قديرة لهم: فقد وقت ابناءها الحاملين ايقونتها العجائبية رغم خطر الكوليرا الذي تهدّدهم لأنهم تتطوّعوا لمساعدة المصابين بهذا الداء القتّال.

كان هذا اليوم من أيّام دومنيك المشهودة لأنه أتى فيه عملاً كان رئيسياً في توجيه مجرى حياته. فقد مارس التساعية الاستعدادية بانتباه ما بعده انتباه بحيث اجرم كل من رآه أن فكره مشغول بشيء ذو أهمية عظمى.

وفي ذات مساء لم يعد دومنيك يطيق الصبر ففاتح الأب بوسكو قائلاً :

- أبت، اريد أن اعمل من هذه التساعية شيئاً ممتازاً
- حبّذا الرغبة، يا بنيّ
- ولكن، ماذا عليّ أن اعمل ؟
- واجبك لا غير، لكن اعتنِ بالصلاة بنوع خاص.
- اريد أكثر من ذلك.
- إذاً تناول مراراً
- هذا ما اعمله منذ زمن بعيد، وإن شاء الله سأتناول يومياً عن قريب. إلا أني اريد أكثر من ذلك.
- ماذا تريد إذاً ؟
- اريد ان اعترف اعترافاً عاماً صم أقدّم ذاتي بكلّيتها للعذراء الطاهرة كي تحفظني من كل شرٍ. فأودّ لو استمدّت لي من ابنها أم أمو قبل أن ارتكب خطيئة مميتة ...

انصرف دومنيك وقد استراح قلبه لموافقة مرشده على رغبته وشاطر الجميع افراح العيد. ولكن في مساء ذلك اليوم المبارك، أما هيكل العذراء، في ظلمة المكان المقدس، انطرح دومنيك جاثياً، وقد امتلأت نفسه نوراً سماوياً، يقدّم ذاته للعذراء مكرراً وعود مناولته الأولى، ومقيماً مريم العذراء حارسة لقلبه الطاهر طالباً إليها الموت ولا الخطيئة.

لعمري إن هذا لدليل على نقاوة نفس فتانا وحبه لها. فيا ليت أن يكثر من يقتفي آثاره تحت راية العذراء مريم ورعايتها.

أخيراً، وجد الأب يوحنا بوسكو في دومنيك ضالتّه المنشودة.

فقد طالما تمنّى أن يجد بين تلاميذه الصغار من يستطيع أن يشير إليه قائلاً. أنظروا فلاناً، اقتدوا به. فدومنيك هو هذا التلميذ الذي مان يحلم به الأب بوسكو. فيا من مثال حيّ من شأنه أن يجذب رفقائه إلى القداسة التي كان يتجّه نحوها بكل قواه كما يبديه لك الحادث التالي:

في مساء أحد من آحاد نيسان سنة 1855 كان موضوع العظة التي ألقاها الأب بوسكو على أبنائه : أن الله يريد أم مقدّس نفوسنا وانه ليس بالصعب الوصول إلى ذلك. سمع دومنيك هذه العظة فأثرت فيه تأثيراً بليغاً كما لو تكلم الأب بوسكو له وحده فقط.

انقلب دومنيك منذ ذاك انقلاباً تاماً: فهو الذي من عاداته الحركة ومرافقة اقرانه والاشتراك معهم في الألعاب، امسى لا يعرف للعب طعماً، بل

أضحى وقت إلى الكنيسة فيصلّي قليلاً ثم يعود إلى المسير وحده اما سلوكه في المدرسة والدرس فقد غدا على النمط نفسه بحيث خاف رفقاءه عليه وأخبروا الأب بوسكو بما كان.

ظنّ الأب بوسكو أن هذه السحابة تمرّ مع الزمان، إلا أنه لما رآه يحافظ على هذا السلوك مدة طويلة دعاه يوماً وبادره بالسؤال:

-دومنيك أرى أنك لست في حالة جيّدة تشكو ألماً؟

- فأجابه دومنيك عندئذٍ. بل أشكو خيراً كبيراً.

- زه، زه ّ لكني لا أفهم معنى كلامك.

- انت هو سبب ذلك.

- أنا ؟

- نعم ، أنت؛ عندما قت أنه يجب أنن نصير قديسين.

- فإذاً ؟

- إذا ، شعرت من نفسي بحاجة أمّارة بأن كأصبح قدّيساً. نعم . ساعدني، أبت؛ قل لي أي طريق أسلك، لأني أظن أني قد ضللت السبيل حتى الآن وهذا ما يقلقني.

ليس دومنيك مريضاً إذا او موسوساً؛ إنما هي نعمة الله تُشغل نفسه وتعدّها لارتقاء سلم القداسة. فسرّ الب بوسكو لذلك كل السرور راح يصّب على دومنيك سيل تعزياته وتشجيعه: " لا تضطرب دومنيك لا تضطرب، فهذا يبعدك عن الله . عُد إلى هدوئك. وخصوصاً كما قد سبقت وقلت لك لثلاثة أشهر خلت، الزم واجبك في كل دقيقة.

أما اليوم فأزيد علة قولي: حافظ على السرور والانشراح. فالفرح من شيم ابناء الله واصدقائه والذين يطلبونه ويخدمونه. سأقول لك فيما بعد أشياء أخرى، أما الآن فاذهب والعب. لا تخف، دومنيك فأنت الصراط المستقيم"..

نزل دومنيك إلى الملعب وقد هدأ روعه واطمأن باله لهذه الكلمات التي حافظ عليها كوديعة ثمينة.

وهكذا انقشعت هذه السحابة التي خاف لها الأب يوحنا بوسكو، ومن ثم ابتدأ الصعود نحو الأعالي ...

كونوا كاملين كما أن اباكم السماوي هو كامل (متى : 5؛48)

اعبدوا الله بالفرح (مز : 99، 2)

أريد أن أصير قديساً وأكون شقيّاً طالما لست قديساً (دومنيك)

"الصديق الأمين معقل حصين"

إن دومنيك يريد ان يصير قديساً. لكنه يخاف ان يضل السبيل. لا شك ان الأب بوسكو لا يبخل عليه بنصائحه وارشاداته. لكن دومنيك يريد اكثر من ذلك، يريد من ينبّهه إلى نقائصه والهفوات التي يغفل عنها؛ لذلك يبحث عن صديق يصطنع إليه هذا الجميل فيتآزران في السير نحو الفضيلة والقداسة. لهذا السبب ارتبط دومنيك بصداقة خاصة متينة مع رفيقه كافيو اولاً ثم مع مسّاليا.

كافيو فتى في الخامسة عشر من عمره، زاد إلى تقواه براعة في النقش والتصوير. وقد أصيب قبل عهد قصير بضعف في القلب ما زال مؤثراً فيه. فزاد سوء جريان دمه من حيائه الطبيعي بحيث أنه قلّما كان يشترك في اللعب. لذا كنت تراه يمشي وحده او يركن إلى زوايا الملعب هرباً من البرد. ولكن لم تخفَ حالته هذه على دومنيك.

فذهب إليه يوما يجامله قال:

-يظهر أنك لا تعرف أحداً هنا، أيها العزيز.

- نهم، لكني أُسر كثيراً بمشاهدة الغير يلعبون.

- ما اسمك ؟

- كاميلّيو كافيو.

- من أين انت؟

- من تُرطونا.

- كم عمرك؟

-خمس عشرة سنة.

- مالي أراك كئيباً؟ هل انت مريض؟

- نعم مرضت مرضاً اوصلني إلى حافة القبر ولم أُشفَ منه.

- إنك تريد ان تبرأ تماماً من مرضك، أليس كذلك؟

- كلا، إنما أفضّل ان تتم مشيئة الله.

كشف هذا الجواب لدومنيك عن عمق تقوى كافيو؛ فتأثر وسرّ وبادره بالقول:

-إن من أحب ان يعمل مشيئة تعال أراد ان يصير قديساً، فهل تشعر بذلك انت ايضاً؟

- هذا كل ما أروم.

- إذا سنتفق، نحن وكثير غيرنا من الذين يشاركونا في هذه الرغبة.

- كل هذا جميل! ولكن ما العمل؟

لا تخف فالأمر سهل. ألا أعلم ان القداسة عندنا تقوم بالفرح.

إننا نهتم باجتناب الخطيئة، ذلك العدوّ الذي يسلبنا طمأنينة الضمير ونعمة الله، ونهتم أيضاً بالمحافظة على جميع واجباتنا وعلى الصلاة. ولكن ضع دائما نصب عينيك هذه العبارة: " اعبدوا الله بالفرح" ...

وهكذا توثّقت عرى الصداقة بينهما وصارا يسرعان معاً في طريق القداسة.

ولكن عاود الداء كافيو، فأنزله بعد بضعة أسابيع إلى القبر.

ولقد زار دومنيك مراراً صديقه إبان مرضه؛ وقد طلب أن يسهر الليالي قرب سريره ولكن رُفض طلبه. ولما أُخبر بوفاته ذهب يزور جثمانه للمرّة الأخيرة. فوقف أمامه يقول حزيناً: " الوداع، عزيزي كافيو. إني لمتأكد من أنك تتمتع الآن بالسعادة الأبديّة. أعدّ لي مكاناً. سأبقى دائماً على صداقتك. سأصلي كلّ يوم من أجلك" ...

هكذا ذهب الموت بصديق دومنيك الأعز ففضل بينهما.

كان في المعهد طالب آخر يكبر دومنيك بأربع سنوات، وهو شاب طويل القامة متين النية، تمكّنت الصداقة بينه وبين دومنيك. وكانت طباع دومنيك وصديقه الجديد، يوحنا مسّاليا، بحيث تجد في الواحد ما ينقص الآخر. وقد تعاهدا بعد رياضة روحية بمناسبة عيد الفصح ان ينبّه كل منهما صديقه إلى هفواته للتقدم في الفضيلة. ومنذ ذلك الوقت ابتدآ يتسلّقان معاً سلم الكمال.

فاتفقا مثلاً أن يبقيا معاً عند الأب بوسكو طيلة العطلة الصيفية سنة 1855 دون أن يذهبا إلى البيت.

ولما اطلعا الأب بوسكو على قصدهما لم يقبل طلبهما لعلمه أن أهلهما في انتظارهما ولأن صحتهما في حاجة إلى الراحة وإبدال الهواء فسألهما:

- لماذا لا تريدان الذهاب إلى البيت؟

فلم يجيباه، بل اكتفيا بأن يبتسما. فعاد الأب بوسكو وقال

- لست افهم مرادكما.

فأجاباه : يا ابانا كم مرة قلت لنا : يفقد العصفور حرّيته في القفص لكنه يأمن شر الصقر، بينما يغدو في خطر من مخالبه إذا ما أطلقت له الحرّية" ... ولم يهتم الأب بوسكو بمقالهما بل أمرهما الذهاب إلى البيت، فهو يعرفهما تمام المعرفة ...

هذا إلا ان صحة مسّاليا لم تكن متينة إلا في الظاهر؛ فأصيب بداء عضال على إثر برد قارس. وقد أُجبر أهله على استقدامه إلى البيت ليعنوا به عناية خاصة. لكن لم تُجد جهودهم نفعاً. هكذا ابعد المرض الصديق عن صديقه. إلا انهما حافظا على صداقتهما رغم المسافة التي تفصلهما، وتشهد بذلك رسائلهما التي يحث فيها احدهما على الخضوع لمشيئة الله والعمل في كل الأحوال.

وما زال الداء يفارق مسّاليا ويعاوده حتى انوله أخيراً إلى القبر مقتبلاً الأسرار المقدسة.

واعلم أنه كان لخبر وفاة مسّاليا صدى قوي في نفس دومنيك هزّه هزّاً عنيفاً بحيث شوهد مراراً يذرف الدمع السخين وينتحب. فقد خسر دومنيك بهذه النكبة أعز اصدقائه. نعم لا يزال الأب بوسكو بالقرب منه لكن مسّاليا كان له عصا سفر في سيرة نحو القداسة... منذ ذلك الوقت كسر الأسى قلبه وغدت صحته هو تدعو إلى القلق وتتجه مسرعة إلى اللحد. فغدا لا يلوي على شيء وقد أصبحت السماء محط آماله وهدفه الوحيد. وقد سُمع مراراً يقول: "أيها العزيز مسّاليا، إني واثق بأنك لحقت بصديقنا كافيو. فمتى اجتمع بكما في السعادة الأبدية؟ " ...

حيثما اجتمع اثنان او ثلاثة باسمي فأنا أكون هناك فيما بينهم (متى 18،20)

"الموت ولا الخطيئة"

"إن في المعهد كثيراً من الأولاد الصالحين، ولكن تأكّد أن ليس بينهم لدومنيك شبيه". هذا ما قالته الأم مرغريت لابنها القديس يوحنا بوسكو. فسألها هذا مستفهماً:

-وكيف تعرفين ذلك؟

أجابته: أعرف ذلك لأني اراه دائماً يصلي. إني أبقى مراراً في الكنيسة بعد تلاوة الفرض، وكثيراً ما يأتي دومنيك يصحبه بعض رفقائه فيتلون معاً جزءاً من السبحة الوردية. ثم إنه يتوقف يومياً عن اللعب ليزور القربان الأقدس وهذا ما أنساه أحياناً تناول فطوره.

وعندما يقف أمام بيت القربان فإنك تخاله ملاكاً من ملائكة الفردوس. ليس بين تلاميذ الأب بوسكو من يعادل دومنيك عبادة وتقوى!

لعمري. إن تلك المرأة الفاضلة مصيبة في تأكيدها. إنها تراه دائماً يصلّي. ولكن لِم هذا الميل الشديد عن حداثة السن إلى الصلاة، ونحن نرى أكثر الصبيان قلما يفطنون من ذاتهم لهذا الواجب الأولي؟

نعم كان دومنيك يصلّي كثيراً وذلك لأنه ادرك كل الإدراك ماهية الصلاة. فصلاته لم تكن مجرّد كلمات متتابعة يتفوّه بها ولا يفهم لها معنى. كلا، إنما كانت صلاته محادثة ودّية مع صديق عزيز، بل وأكثر من ذلك.

ما أجمل ما قاله الأب فابر في تحديد الصلاة: " الصلاة هي حديث الانسان ابن الله بالتبني مع ابيه السماوي". نعم، هذه هي صلاة دومنيك. فهو ينظر إلى الله نظرته إلى الأب الحنون لا إلى سيّد قاسٍ ظالم.

عرف ان الله ابوه فشعر بحاجة ماسة إلى التحدث إليه لا بكلمات يخفى عليه معناها، بل بلغة القلب، لغة الابن الذي يكاشف اباه برغائبه ومكنونات صدره. فكم يلذّ له إذاً ان يزوره في بيته ولو اقتضى ذلك ترك اللعب قليلاً: فالله عنده اهم من اللعب. وكم يكون فرحاً أعظم عندما يتسنّى له ان يرافقه بعض الأصحاب.

فهم دومنيك ان الله ابوه فأحبه شديد الحب. وكفانا شاهد على هذا ما سمعه منه يوماً الأب بوسكو بعد القداس وقد خرج الجميع من الكنيسة إلا دومنيك، سمعه يناجي ربه بهذه الكلمات: "نعم، ربّي ، قلت وأكرّر قولي: إني احبك واريد ان احبك حتى آخر أيام حياتي. فإذا رأيتني يوماً على وشك خيانتك، امتني حالاً. نعم الموت ولا الخطيئة"

" الموت ولا الخطيئة" : يا لها من كلمات يجدر بنا ان نجعلها شعارنا على مثال لدومنيك الذي فهم تمام الفهم حب الله لنا وعظم إهانتنا إياه بالخطيئة التي هي أعظم الشرور.

احب جومنيك الله فصار يرى الساعات الطويلة بالقرب منه دقائق قليلة تمرّ اسرع من لمح البصر. وقد اشتهر عنه هذا الحادث الذي نسرده لك.

حدث ان غاب دومنيك يوماً عن الفطور؛ فلم يأبه احد لذلك.

ولكن لما طال غيابه بحيث لم يحضر لا إلى المدرسة ولا إلى الغذاء عند الظهر استحوذ على الجميع قلق شديد. فنقل الخبر إلى الرئيس الأب بوسكو فعلم هذا حالاً ما قد جرى واتجه توّاً إلى الكنيسة. وهناك خلف المذبح الكبير ألفى دومنيك واقفاً عاقداً رجلاً على رجل، جامداً بلا حراك؛ يرتكز بإحدى يديه إلى المقرئ بيتنا يضع الأخرى على قلبه ويحدّق بنظر إلى بيت القربان. فناداه الأب بوسكو ولما لم يحر جواباً أخذه بيديه وهزّه بشدة.

فانتبه حينئذٍ دومنيك من ذهوله وسأله مستغرباً.

-هل انتهت الذبيحة الإلهية؟

- ماذا؟ انظر! قال الأب بوسكو هذا واراه ساعته التي كانت تشير إلى الساعة الثانية ظهراً.

- فاعتذر دومنيك قائلا: سامحني، سامحني، ابت، لأني قد أخللت بنظام المدرسة.

- لا تخف، دومنيك. اذهب إلى رفقائك في الملعب؛ وإذا سألك احد اين كنت فقا إنك كنت تقوم بما أمرتك به.

إليك الآن حادثاً آخر يطلعك على أن القربان لم تكن لدومنيك شيئاً أبيض يحبس في القربان او يعرض على المذابح، بل تحوي ربّه الذي يحبه.

في يوم من أيام الشتاء وكانت الأرض وَحِلة، مرّ بالقرب من دومنيك كاهن يحمل القربان الأقدس لأحد المرضى. فلم يكن من دومنيك إلا أن جثا على الأرض في الوحل ريثما يمر السيد المسيح له السجود. ولمّا عاتبه رفيق له على عمله هذا أجابه: " إن الرُكب والثياب كلها هبة من الله، فعلينا ان نستعملها لخدمته وتمجيده تعالى"

هذا ولم تكن اعماله تلك مجرّد مباهاة بنفسه أو رغبة منه ان يطلع الجميع على حبه لله او لغاية بشرية أخرى، بل كانت تعبيراً صادقاً عن اعتقاد راسخ

ومحبة خالصة لصديقه الإلهي. فقد كان تعالى موضوع آماله ورغائبه الله هدفه الأول.

وإذا كانت مرضاة الله بغية دومنيك الكبرى فذلك لأنه اختبر حبه تعالى، وإذا كان لا يتقاعد عن قضاء الساعات الطويلة معه تعالى فذلك لأن مخاطبته لله لم تكن بلا جواب من قبله تعالى، وهذا ما صرّح به مرشده الأب يوحنا بوسكو إذ قال يوما لتريز اخت دومنيك المتوفّي آنئذٍ : " آه تريز، تريز! إن اخاك لقديس عظيم فكلما احتاج الأب بوسكو إلى مشورة ارسله ليطلبها من الله، فيعود إليه بالجواب الإلهي" .

وكثيراً ما كان الله يسبق ويطلع دومنيك على بعض رغائبه فيأتي بها هذا إلى الأب بوسكو. وها إننا نذكر لك احد امثال ذلك.

قرع جومنيك ذات ليلة باب غرفة الأب بوسكو، فاستيقظ هذا وفتح الباب قليلاً وسأل مستفسراً: " ما وراءك، دومنيك؟

-هيا بنا : هنالك عمل صالح علينا أن نصنعه، علينا ان نخلّص مسيحيّاً.

- وإلى أين تريد تذهب بي؟

- أسرع، أسرع.

وهنا ندع الكلام للأب بوسكو فيقول : " لقد تملّكني التردّد، ولكن لما كرّر عليّ الأمر قرّرت أن أتبعه، خصوصاً وقد اختبرت مراراً صحة مثل هذه الأقوال.

خرجنا من البيت وقطعنا معاً أربعة شوارع. وكان يسرع الخطى صامتاً و انا أسير في إثره. أخيراً وقف عند احدى الدور، فصعد الدرج وقرع الباب في الطابق الثالث قائلاً لي : " هنا، ادخل". وقفل راجعاً إلى البيت تحت ستر الظلام.

ولما فتح الباب إذ بامرأة تصرخ بي : " أسرع، أسرع، وإلا فات الاوان قد اعتنق زوجي المذهب البروتستاني، إنه مشرف على الموت ويطلب نعمة الميتة الصالحة".

فاقتربت من المدنف. لما وقفت على رغبته الصادقة في تنقية ضميره سمعت اعترافه. وحالما فرغت من ذلك وصل كاهن الرعية يحمل الزيت المقدس. وما أن مسحه المسحة الأولى حتى امسى جثة هامدة".

هذا وقد حاول الأب مرة ان يستعلم دومنيك عن كيفية اطلاعه على ذلك. فنظر إليه دومنيك وامارات الحزن والرجاء تبدو على محياه، ثم انخرط في البكاء. ومنذ ذلك الوقت لم يعد الأب بوسكو يكلمه بشأن هذا الحادث...

يا بني، أعطني قلبك، ولترع عيناك طرقي (امثال : 23؛26)
أنظروا أيه محبة منحنا الآب حتى ندعى ونكون ابناء الله (1 يوحنا : 3؛1)

" لي رغبة أن أعمل شيئاً للعذراء"

كثيراً مكان القديس يوحنا بوسكو يحرّض ابناءه على العبادة للعذراء. وإذا ما كلمهم عن الوسائل لحفظ نقاوة القلب أضاف العبادة للعذراء مريم إلى سرّي الاعتراف والتناول. دومنيك الذي تجسّمت فيع كل نصائح الأب بوسكو أدرك هذه الوسائل ولجأ إليها. فقد رأينا كيف نما فيه منذ الصغر حبه للرب سجين بيت القربان حتى توصل إلى الاعتراف الأسبوعي والمناولة اليوميّة. فكيف إذا لا يحب العذراء، هذه الأم العزيزة على قلب كل مسيحي حقيقي!

بلى، لقد أضاف دومنيك إلى حبه ليسوع حبه لوالدته القدوسة ولم يفضل قط بين هذين الحبّين. وقد مرّ بنا كيف أنه منذ حداثته واظب لى تلاوة الصلاة الملاك عند سماع جرس التبشير. ونذكر جيداً ثالث مقاصده يوم تناوله الأوّل: اما صديقاي فهما يسوع ومريم. لقد حافظ دومنيك على هذا القصد تمام المحافظة حتى كرّس يوماً ذاته بكمالها لأمه السماوية؛ ولم يدعُها إلا أُمه. وتأكد أن عبادته هذه ليست وليدة العاطفة، تنبعث اليوم و تنطفئ غداً؟ إنما هي عبادة حقيقية متينة مؤسسة على الحقائق اللاهوتية مثل كون العذراء والدة الله، مخلّصة مع يسوع وموزعة لجميع النعم.

وكم رغب دومنيك في أن يعبّر لأمه السماوية عن حبه لها بممارسة اماتات وتقشفات لم يكن يقوى على احتمالها لضعف صحته، كالصوم كل سبت إكراماً لها ولكن بوسكو صدّه دائماً عنن مثل ذلك.

وكثيراً ما كان يوقف عن اللعب قليلاً و يستحث رفقاءه قائلاً : " هلمّوا، هلمّوا، نتلُ معاً قسماً من السبحة الوردية عند أقدام سيدتنا العذراء"
إلا ان عبادته كانت تبلغ ذروة الحرارة في الشهر المريمي، شهر أيار. فقد قال عنه الأب بوسكو: "لم يظهر قط محبّاً لمحاميته السماوية مثله في هذا الشهر". ولا يكتفي عندئذٍ بالاقتراب يومياً من مائدة الخلاص بل كان يحرّض كثيرين من أقرانه على أن يحذوا حذوة إكراماً للتي منها تجسّد ابن الله. زد على ذلك أنه كان يجدد كل يوم طريقة جديدة لتمجيد البتول علاوة على تتميم الواجبات المعتادة. فإحدى هذه الطرق وأحبها على قلبه هي تشييد مذابح صغيرة لمريم في غرفة الدرس أو النوم. فمرّة اقتضى منه بناء هذا المذبح في غرفة النوم تضحية كبرى. فقد اراد هو ورفقاءه أن يكون هذا المذبح تحفة يقدمونها للعذراء. فراح الجميع يساهمون في التكاليف بدفع ما وصلت إليه يدهم. ولكن أنّى لدومنيك وهو الفقير ابن الفقير أن يدفع قسطه. فوقع في حيرة... وانه لذلك إذ طرقت على باله فكة. فقد أحرز منذ سنة قصب السبق في الامتحانات وكوفئ بجائزة منحه إياها الأب بوسكو. ولا شك أن هذه الجائزة عزيزة خصوصاً وهي أول الجوائز التي يحصل عليها وبنوع أخص لأنها من الأب بوسكو الذي يحبّه كثيراً! ولكنه لم يتردد بل ذهب بها حالاً إلى رفقاءه قائلا : " أيها الأصدقاء، اريد ان اعطيكم هذه الكتب فبيعوها وخذوا ثمنه للمذابح"
وهكذا صار. ولم يألُ التلاميذ جهداً في اتقان الهيكل ليكون آية في الجمال. وطلب دومنيك أن يسهر معهم إلى ساعة متأخرة من الليل لأنهائه ولكن رُفض طلبه، فقال لهم " أكّدوا لي على الأقل أنكم ستوقظونني عند فراغكم من صنعه لأتمتع برؤية عملكم ورؤية العذراء مكرمة" .
أحب دومنيك أمُه السماوية ولم يقوَ على حصر هذا الحب في فؤاده فصارت تفلت منه مراراً كلمات تحدث سامعة عما يكنّه قلبه. تملّكت البتول كيانه فصار يقتدي بفضائلها ويتحدث دائماً عنها. وكما أن الولد يستصعب الفراق عن أمه كذلك كان يستحيل على دومنيك أن يدخل الكنيسة دون أن يقتش عن المذبح المخصص لها، فهو، لشغفه بأمه السماوية، لا يطيق عنها فراقاً.
كثيراً ما سمع دومنيك، سنة 1855، يردد قوله : "لي رغبة أن اعمل شيئاً للعذراء؟ واريد إتمامه عاجلاً، لأني أشعر بقلة أيامي" وماذا ينوي ان يعمل هذا الفتى؟

إنه يريد ان يعمل شيئاً كبيراً. لقد فهم دومنيك تمام الفهم الخطة التي يرسمها الأب بوسكو لمن يستشيره بشأن التقدم في القداسة : " خلّص نفسك بتخليص إخوتك" نعم فهم دومنيك ذلك جيداً. لمنه لا يستطيع إلا أن يدخل شفاعة والدة الله في خطّته الخاصة. فجلّ مرامه إذا ان يجمع فريقاً من اقرانه يسير تحت راية البتول فيساعد الأب بوسكو على تخليص باقي الرفقاء في المعهد. فهذه هي الخطة التي ما زالت تشغله بنوع متواصل متوقعة الفرصة لتبرز في حيّز الحقيقة والواقع. وبينما هو كذلك أزفت الساعة المنتظرة في ذات صباح من شهر أيار سنة 1856.

ففي ذلك الصباح عندما التفت الأب بوسكو ليبارك الحضور عن الهيكل قبل المناولة، لم يرَ احداً يتقدم لقبول سر القربان الأقدس يا للغرابة، ما هذا؟ إنه شهر أيار، شهر مريم وليس من يقترب للتناول حتى لا روّا او كَلييرو او فرنتشيزيا ولا دومنيك نفسه! هي الحقيقة الراهنة المؤلمة. لا أحد! كلا، ليس هذا طبيعياً؛ لا بدّ من إصلاح سريع.

وبينما كان هؤلاء التلاميذ في طريقهم إلى المدرسة أخذوا يندبون م جرى، فيقول دورندو متأوّهاً : "لا، لا يجب أن يحدث مثل هذا مرة أخرى". فيجيب بنُجيبُوَنّي : " علينا إذا بالاتحاد والاتفاق ليكون كل يوم من يتناول". فأجمعوا على هذا الرأي. وقد عرضوا على روّا وكلييرو ودومنيك ان ينضموا إليهم، فلبّوا طلبهم، ولما كان اليوم المعيّن للاجتماع حضروا جميعاً. وهناك أطلعهم دومنيك على ان الطريقة التي اختاروها لا تصلح إلا لإزالة الشر خارجياً فقط، بينما عليهم أن يستأصلوه من جذوره.

ففاز قوله برضى الجميع، وأخذو من ذلك الحين يعملون بأنفسهم على سن القوانين التي ستسير بموجبها هذه الجمعية التي أسموها، نزولاً عند رغبة دومنيك نفسه : جمعية الحبل بلا دنس .

وبعد ان وافق الأب المرشد على القوانين، أخذو هؤلاء الشبان الغُيُر يكتشفون امراض المعهد الروحية لمعالجتها. ولم يمض الطويل من الزمن حتى وقعوا على أن أكبر هذه العلل هي قلة الأمثال الصالحة والطاعة للرؤساء مع إضاعة الوقت. فآلوا على أنفسهم ان يحاربوا الخلل واتخذوا لهم شعاراً هذه الكلمة : " الكمال في كل شيء" .

ولا يسعنا ها ان نذكر كل ما أتت به هذه الجمعية من الخير فنكتفي بسرد حادث وشهادة يظهران أثرها العميق.

رأينا ان جمعية الحبل بلا دنس وليدة قلة المناولة في المعهد، مع أن القديس يوحنا بوسكو كثيراً ما أبدى رغبته في ان يرى جميع أبناءه يشتركون معاً في الاتحاد بالمسيح بتناول القربان الأقدس. فأراد اعضاء الجمعية ان يحقّقوا أُمنية أبيهم، فاقتسموا طلاب المعهد، ليتسنّى لكل منهم ان يجتذب رفقاءه إلى التناول ليلة عيد الميلاد من تلك السنة 1855 وهي السنة التي فيها تأسست جمعيّتهم وهذا ما تمّ. فليلة الميلاد فوجئ الأب بوسكو بمشهد طالما تمنّاه، إذ رأى أبناءه كلهم يقتربون إليه فيطعمهم خبز الخلاص.

اعلم ان هذه الجمعية دامت سرّية لا يدري بها إلا اعضاؤها و رئيس المعهد طبعاً . أما الذين جهوا وجودها فكانوا يكتفون بإبداء دهشتهم و حيرتهم في تعليل الانقلاب الذي تم بين الطلاب بنوع خاص بعد تأسيس جمعية الحبل بلا دنس. فهناك الأب فرنتشيزيا الذي كتب بعد بضع سنوات : "إني اذكر جيداً ان لسنتين 1855 و 1856 كانتا سنتي انتعاش محسوس في الفضيلة و سباق في الاقتراب من الاسرار المقدسة وزيارة القربان الأقدس. فكنت أعجبت بهذه الحماسة التقوية دون ان اقوى على تعليلها. ولم اعلم ان تلميذي دومنيك كان هو سبب ذلك إلا حين نشر الأب بوسكو ترجمة حياته". هذا ونقف عند إعلاننا مؤسستي جمعية الحبل بلا دنس اصبحوا كلهم النواة لجمعية الآباء السالسيين، ما عدا واحداً هو دومنيك الذي وافته المنون قبل سنتين ...

من كان للعذراء عبداً لن يدركه الهلاك أبداً (القديس برنردس)

الأب بوسكو : قل أية فضيلة ساعدتك أكثر من غيرها في ساعة موتك ؟

دومنيك : هي حضور مريم العذراء ومساعدتها (حلم الأب بوسكو في 1876/12/6)

كيف أخلص بلا أعمال التوبة ؟

كان دومنيك على حظ عظيم من التقوى بحيث غدا مثالاً لمن يحيط به. إلا أنه تحلّى أيضا بما ليس بدونه تقوى اعنى بروح التقشف وحب الإماتة. لقد اغرم دومنيك بالتقشف بحيث كانت اصعب إماتة عنده ان يمنعه مرشده من ممارسة افعال التقشف الصعبة. وكثيراً ما سمع يردد قوله " قال الرب : ان لم تتوبوا تهلكوا. فيا لتعسي أنا المسكين كيف يمكنني أن اخلص وقد حرمت التقشف والاماتة! ". ذلك لأن مرشده كان يصده عن ممارسة أي

إماتة قد تضر بصحته النحيفة. فمن عادت دومنيك مثلاً، على مر بنا ذكره، أن ينقطع أيام السبت على الخبز والماء إكراماً لسيدتنا مريم العذراء كما قرر أيضاً أن يصوم الصوم الأربعيني بكامله مع أنه دون السن القانونية، او أقله إن يمتنع في تلك الأيام عن تناول طعام الفطور أو العصر. لكنه سرعان ما أُجبر على الرجوع عن قصده طاعةً لمرشده.

فراح يفتش عن طرق أخرى خفية، كان يدس قطع فخار أو أخشاباً في سريره. ولكن عندما وقف مرشده على ذلك منعه أيضاً. حينئذ خطر بباله أن يخفف غطاءه، وهكذا. لكنه لم يقوَ يوماً على النهوض من فراشه لانحراف صحته. ولما مر به الأب بوسكو ليزوره ألقاه متكمش في فراشه من شدة البرد. ولما لم يجد عليه من الغطاء إلا لحافاً واحداً خفيفاً وبخه بعنف.

أما دومنيك فأجابه ببساطته المعهودة : " إني لن أبرد أكثر من الطفل يسوع في مزود بيت لحم" . تحيّر دومنيك إذ لم يعد يجد تقشفات يسمح له مرشده بممارستها. فكلما وقع اختياره على نوع من انواع الإماتة، حرم عليه الأب بوسكو استعماله. فسأل دومنيك يوماً مرشده قائلاً : " وكيف أدخل الفردوس إذاً ؟ فقد قال يسوع أننا لم ندخله دون أعمال التوبة...

ثم من يكفر، يا ترى، عن خطايا الآخرين؟ من يتمم آلام المسيح؟ لقد شُرحت لنا هذا كله قبل بضعة أيام!" ...

عندئذٍ أجاب الأب بوسكو بلطفه المعتاد : " اسمع، اصغِ تماما لما أقول لك. صنعك علينا جميعاً ، أبرياء كنا أم خطئة، أن نأتي أعمال التوبة، لأننا بذلك نكمل آلام المسيح كما قلت، إلا أن أعمال التوبة عديدة متنوعة. وهناك إماتات غير التي اخترتها، لا تقل عنها صعوبة وهي في الوقت نفسه لا تضر بصحتك الضعيفة.

- وما هي ابت؟

- الطاعة التامة، والعمل المتواصل، واحتمال الصعوبات المشقات اليومية

- هذا فقط؟

- أقليل هذا عند؟ زد إذا الصبر مقروناً بالابتسام تجاه الآلام التي قد تصادفها في بحر النهار : كالحر والبرد والثلج والشتاء والتعب والضجر والاخفاق والمعاكسات، بل وذلك السعال الذي يدعو إلى القلق... أفهمت ؟

- نعم، يا أبت.

نعم، فهم دومنيك نصيحة الأب بوسكو؛ وقد برهن عن ذلك بعد بضعة أسابيع بسلوكه مطابقاً لها. إليك هذه الحادث :

في أثنا أحد الدروس التي كان يلقيها الاكليركي روّا، فاه أحد التلاميذ بكلمة أضحكت الجميع. ومع ان الأستاذ كان يصوّب إلى الطلاب نظرات العضب، كان هؤلاء، على غير عادة منهم، يزدادون ضحكاً؛ ولم يخيّم الصمت إلا بعد مدة طويلة، وعندئذٍ تغلب الضحك من جديد على دومنيك رغم جهوده المعاكسة، وليس من عجب في الأمر: فكثيراً ما يحاول الإنسان الإمساك عن الضحك دون جدوى.

ولكن الأستاذ استاء من ذلك لأنه اعاد البلبال بين الطلاب؛ فانتهر دومنيك قائلا: " سافيو، قم، اركع في الوسط". وهنا جمدت حنجرة دومنيك؛ ثم عاد إلى هدوئه وانطبعت على وجهه امارات التأثر والتأسف، فقام وركع حتى نهاية الدرس...

اثبت هذا الحادث لدومنيك صحة قول الأب بوسكو له. لذلك راح يقتنص فرصاً مثل هذه، فيقنع مثلاً : بالقليل من الأكل الذي كان يقدم له، او يحتمل أشد البرد، فلا يسرع الخطى على الطريق لئلا يهرب من لسعاته، او يحافظ على ابتسامته المعهودة، ويعرض قفازه الذي نسجته له أمه، على ولد يمنعه الفقر من محاربة البرد، ولا يبالي بكون أصابعه هو أيضاً منتفخة متورّمة...

فسقياً لذاك الذي لا يدع فرصة تمر إلا وقبض على ناصيتها ليقدّم لصديقه الإلهي باقة زهور حمراء تقطر دم الحب السخين !

إن حبة الحنطة التي تقع في الارض ... إن ماتت أتت بثمر كثير (يوحنا : 12؛ 24،25)

من أراد ان يخلّص نفسه يهلكها ومن أهلك مفسه من أجلي ... يخلّصها (مرقس : 8؛35)

"خّص نفسك بتخليص إخوتك "

إن دومنيك يحب الله ولا يريد إلا مجده تعالى؛ لكن حبّه هذا لم يكن مجرد عاطفة لا قيمة لها في الحياة العملية. لذلك صمم دومنيك على ألّا يتراجع امام التضحيات التي يقتضيها هذا الحب. وقد برهن على ذلك أولاً بالابتعاد عن كل ما من شأنه أن يشوّه بياض نفسه الطاهرة ويهين الله. ثم راح يعمل بوصية السيد المسيح الذي قرن حب الله وحب القريب في وصيّتين متشابهتين. زد على ذلك ان الأب بوسكو كان يطلع خيرة ابنائه على سر القداسة وهو يخلّص الانسان نفسه بالعمل على تخليص نفوس الغير. " خلّص نفسك بتخليص اخوتك" .

فقه دومنيك معنى هذا المبدأ؛ فحاول أولا أن يحبب ذاته إلى رفقائه ليستطيع ان يقودهم بسهولة إلى الله. فها هو والابتسامة مطبوعة دوما على شفتيه يشجّع منكسر القلب ويؤاسي من تنحّى في احدى زوايا الملعب يقاسي مرارة البعد عن الأهل. يخدم أقرانه ولو اقتضى الأمر أن يحرم ذاته اللعب وكان يعلّم القراءة للجاهل. إنه يبتسم دائماً فلا ترى أبداً على وجهه امارات الغضب حتى إذا ما أهين.

نعم، أحب دومنيك رفقاءه. لكنه احبهم ليقودهم إلى القداسة، إلى خلاص نفوسهم. فما أعظم فرحه أيام الآحاد وأيام العطلة عندما يختلط بصبيان الرعايا المجاورة للمعهد فيوزّع عليهم ما احرزه من الجوائز من صور وأيقونات وسبحات وصلبان وغير ذلك؛ بهذه الهدايا كان يجذبهم إليه فيغتنم الفرصة ليلقي عليهم مبادئ الديانة، ثم يذهب ببعضهم إلى الكنيسة فيعترفون.

واعلم ان احب شيء على قلب دومنيك هو ان يوفّق في حمل أحد رفقائه على الاعتراف والتناول، كما تظهر ذلك اعماله المبرورة.

سمع دومنيك يوماً ولدين يتشاجران. وكان أحدهما وهو ابن تسع سنوات فقط يجدف وهو يضرب خصمه. ولما لم يقوَ دومنيك او يصبر على مثل هذا التجديف اتجه نحو الصغير وقال له بلهجة الآمر : " تعال معي فتُسر ". تبعه الفتى وهو لا يدري إلى أين يذهب. فمضى به دومنيك إلى الكنيسة فأومأ إليه بالركوع امام القربان الأقدس وقال له :

-كرّر ما أقول: ربي، إني أستغفرك الاساءة التي اهنتك بها، بالتجديف على اسمك القدوس ثم اردف : والآن اتلُ معي فعل الندامة صادقة، وعاهد الرب ان تضبط لسانك في المستقبل...

هذا وكان يُحزن دومنيك الإخفاق في مثل هذه المساعي، إلا أنه ما كان ييأس أبداً بل كان يعيد الكرّة حتى ينجح من ذلك أنه توصل يوماً بعد الجهد الجهيد إلى أن وعده أحد التلاميذ بالاعتراف يوم السبت المقبل.

ولكن لما حانت الساعة المعنيّة بقي التلميذ في غرفة الدرس. ولما صادفه دومنيك بعد ذلك للمرّة الأولى قال له والحزن والأسف باديان على وجهه :

-آه لقد خدعتني! ...

- اجابه هذا: لم أكن مستعداً للاعتراف في تلك الساعة.

- قل إن الشيطان تعلّق بثيابك ومنعك. لكن اعلم انك لم تكون احسن استعداداً بعد ثمانية أيام... ألا اسمع مني واذهب حالاً. سترى أنك ستسرّ...

حدث مرة أخرى ان تجادل طالبان وتشاجرا، فعزما ان ينهيا المسألة بالمبارزة. شقّ ذلك على قلب دومنيك الغيور و دعاهما إلى المصالحة؛ فلم يفلح. عندئذٍ طلب إليهما على الأقل أن يأذنا له بحضور المبارزة، فقبلا بشرط ألا يتدخّل او يدعو من يفصل بينهما.

ووقف كل في جهته. حينئذٍ انتصب دومنيك في الوسط وهو يمسك بيده صليبه الصغير وقال :

-قبل ان تتقاتلا أنظر إلى الصليب وقولا بصوت جهوري:

" إنّ يسوع المسيح البريء مات وهو يصفح لقاتليه، وانا الخاطئ أريد ان أهينه بالانتقام علانية" .

قال هذا وتقدم نحو أشرس الخصمين خلقاً وقال له:

-هيّا ارم الحجر الأول على رأسي.

فأجابه هذا مستنكراً:

ولكني لا اريد أن اؤذيك؛ بل إني لمستعد للدفاع عنك إذا ما تعدّى عليك متعدٍ.

وهكذا أجابه الخصم الآخر. فعندئذٍ وبخهما دومنيك بقوله:

-كيف يكون هذا؟ إنكما مستعدان لأن تخاطرا بنفسيكما لتدافعا عنّي، أنا الخليقة الحقيرة ولا تقويان على الصفح عن إهانة بسيطة، في حين أن هذا ضروري لخلاص نفسيكما اللتين اشتراهما يسوع بدمه!

ولمّا لم يزل منتصباً بينهما والصليب عالٍ في يده، لأن قلبا الخصمين فتقدما نحوه وتصافحا ودموع الأسف تسيل على خدّيهما. فذهب بهما دومنيك إلى الكنيسة حيث اعترفا...

إن دومنيك يريد خلاص رفقاءه. لذلك تراه يسهر عليهم. وكلما أحسّ بخطر يهدد نفوسهم نبههم إليه في الحال ليبتعدوا عنه. فكم مرّة منعهم من الذهاب للسباحة في نهر خطر أيام الحرّ الشديد. أمّا أمثال ذلك فكثيرة لا يتسع المجال لسردها كلّها فنقطف منها اثنين :

رأى دومنيك يوماً أن الطلاب يتركون اللعب ويتجمهرون بقرب الباب. أراد أن يعرف السبب، فاتجه إليهم وإذ به يقع نظره على شخص غريب شرس المنظر يتوسط الجمع وهو ينهي قصة غريبة ضحك لها الجميع. لكنه اتبع هذه القصة بأخرى أغرب منها لا تخلو من الكلام البذيء وهي في الوقت نفسه مهينة للكهنوت. عندئذٍ عرف دومنيك أن ساعة تدخّله قد دقّت فقال لرفقائه: "أتركوا هذا التعس. إنه يضر بنفوسكم".

بهت الرجل بادئ ذي بدء، إلا أنه ملك نفسه وقال:

-وما يهمّك أنت، أيها المسلول؟ فإن كانت قصّتي لا تعجبك فاذهب والعب مع أصحابك.

فردّ عليه دومنيك: "إني أتدخّل بما يعنيني. لا يحق لك ان تدخل هنا لتتفوّه بالبذاءات وتضرّ بهؤلاء الأولاد ألا اسرع، خارجاً! ".

قابل لرجل هذا الأمر بالشتم والسب، ولكنه ما عتم ظان انسحب إذ شعر بأن المستمعين أيضا قد انقلبوا عليه...

وقع نظر دومنيك مرة أخرى على بعض أصحاب اجتمعوا ينظرون مجلّة خلاعية مصوّرة. شعر بالخطر فأسرع إليهم وأخذ المجلّة كمن يريد ان يتصفحها بدوره بمزّقها قطعة قطعة وهو يقول:

-ما هذا! إن الله وهبنا عينين لننظر عجائب الخلق، وأنتم تملؤونها بهذه الأقذار؟

- إننا ننظر إليها في سبيل الضحك فقط!

- نعم؛ وبهذا تعدّون نفوسكم لجهنّم، هل تضحكون، يا ترى إذا ما سقطتم فيها يوماً؟

- على أننا لا نرى في عملنا الشر الذي تومئ إليه !

- وهذا افظع أيضاً. فهو دليل على أن نفوسكم مشبعة بأمثال ذلك . فلا عذر لكم إذاً ....

قال هذا وابتعد عنهم.

على أن التدخّل لمنع الشر ليس دائماً بالأمر السهل. لذلك كثيراً ما كان يكتفي دومنيك بالتعويض عن الشر دون أن يدري به أحد.

فقد رآه يوماً احد اصدقائه يرفع قبّعته في ساحة عموميّة ويتمتم بضع كلمات فسأله متعجباً:

-ماذا تعمل ؟ وماذا تقول؟

- ماذا! ألم تسمع التجديف الفظيع الذي تشدّق به هذا الحوذي؟ لو لم أشعر بأنه يزداد تجديفاً لكنت نبّهته إلى خطئه. ولذلك، رفعت قبعتي وقلت: "ليكن ممجداً يسوع المسيح".

ألا أعجب بهذه الغيرة، أيها القارئ، واقتدِ بها ! ...

هذا ولم تكن مهمة دومنيك بالسهلة. فكثيراً ما كان يلقى من المذنب الزجر او الضرب بدل التوبة والشكر ويحتمل الكل بصبر عجيب. فقد أراد يوماً ان يصدّ الرفقاء عن مخالفة النظام، فازدراه هذا قائلاً : "دعني من عظاتك، أيها المسلول" ...

ويشهد الأب فرنتشيزيا معلمه أنه شاهده يوماً وقد لكمه أحد الطلّاب على وجهه لكمة قوية قائلا : "إليك هذا، اذهب به إلى الأب بوسكو" ، ظنّاً منه ان دومنيك يتجسس عليه بأمر من الأب بوسكو. اما دومنيك فلم ينبس ببنت شفة، بل لم يعمل شيئاً، فلا حاجة إلى القول ان الأب لم يدرِ بما جرى.

أخيراً إليك حادثة يظهر فيها دومنيك متمّماً لقول السيد المسيح : " أحبوا أعدائكم واحسنوا إلى من يبغضكم وباركوا لاعنيكم" .

في ذات مساء من أيّام الشتاء راح بعض التلاميذ يقذفون موقد البيت الوحيد بقنابل من الثلج، فصرخ بهم دومنيك:

-لا ترموا الثلج في غرفة الدرس؟ إن الأب بوسكو قد منع ذلك!

فرد عليه أحدهم بفظاظة :"مالك ولنا؟"

ولما لم ينفك دومنيك يكرّر القول انهال عليه هذا الشرس باللكم والضرب بيده ورجليه. اما دومنيك فلم يُحر جواباً، إلا أنه بعد أن هدأ قليلاً اكتفى بأن يتمتم: "إني اصفح عنك، كلّا ليس هذا حسنا : لا تعامل الآخرين هذه المعاملة"...

طوباك، دومنيك، ليت لنا القليل من هذا الصبر وتلك المحبة التي تحلّيت بها! ...

ها أنا مرسلكم مثل الخراف بين ذئاب (لوقا: 10،3)
إن خلّصت نفساً كنت من المختارين (القديس اغسطينوس)

"أريد دراهم للسفر إلى الأبدية"

قال احد مؤرخي القديس دومنيك: " إن وفاته كانت نتيجة لمرضه وقد تمت على يد طبيبه، وهي أيضاً من جرّاء نار داخلية أذابته"

أما إن كان الطبيب على شيء مما ينسب اليه فذلك لتأخر الطب في ذلك العصر. ولا شك في أن العامل الأكبر على موت دومنيك هو تلك النار الداخلية التي أذابته رويداً رويداً. وما كانت المدة الأخيرة من حياته إلا تشوّقاً متلهّفاً وسيراً سريعاً نحو ذلك الباب الذي يوجّهه إليه مرضه.

بدت دلائل السل في الرئتين في خريف سنة 1855، وعلى إثر ذلك أجبر الأب بوسكو دومنيك وصديقه مسّاليا أيضاً، فكلا الصديقان يسيران نحو اللحد، على أن ينزحا عن طورنيو طلباً للراحة بين ذويها. ولم يعد دومنيك إلى المدرسة إلا في أواخر شهر تشرين الأول وق أجهد نفسه في هذه السنة سواء كان باهتمامه بدروسه ام باعتنائه بأخويه الحبل بلا دنس وعمله على إفادة رفقائه روحيّاً. ويظهر أنه شعر منذ ذلك الوقت بنفاد قواه، فقال :"يلوح لي أن جسمي قد ذاب، والكلّ يتنبأني بأني أسير حثيثاً نحو نهاية دروسي وحياتي معاً" .

نُعي إلى دومنيك، بعد شهر من هذا، صديقه مسّاليا، فكان لهذا النبإ المحزن صدى قوي ردّدته جوانحه النحيلة فزاد في حدّه مرضه فأوجس الأب بوسكو خيفة ورأى أن يطمئنّ عن صحة تلميذه بفحص طبّي دقيق.

وجاء هذا الفحص مصداقاً لما تنبّأ به دومنيك عن قرب أجله. فلم يسع

الأب والحالة هذه إلا أن يلزمه ثانية بالعودة إلى مُندونيّة طيلة العطلة الصيفية. وعند افتتاح المدرسة عاد إليها ولم تتحسن صحته. ومع ذلك واظب على كل واجباته المدرسية دون أن يتغيب عن أي درس من الدروس، كما كانت ابتسامته لا تزال تنير وجهه. لكن لم ينخدع دومنيك، فقد كان يعلم حقّ العلم أنه يسير إلى القبر لا محالة، إلا أنه رضي بهذه التضحية الكبرى التي تذوي بها آماله. كان يرغب أن يصبح يوماً كاهناً يعمل على خلاص النفوس، لكن حكمة الله قرّرت ان هذه الزهرة النضرة قد تم نضجها فلا تصلح إلا لأن تقطف وتنقل إلى الفردوس السماوي.
رضي دومنيك بهذه التضحية، لكن الأب بوسكو حاول جهده للمحافظة على حياة تلميذه الحبيب. فانتبه اليه يوماً وقد ذُعر للسعال العنيف الذي يهزّه. ولذلك قرر ان يعيده ثالثة إلى مندونية للاستراحة.
تسلّم دومنيك هذا الأمر من مرشده فاهتزّ كيانه لدى سماعه، لعلمه اليقين بأنه لن يرجع إلى المعهد حسب قوله : " إني أذهب إلى البيت ولن أعود منه. وددت لو أنهيت أيامي في هذا المعهد! " لكنه عاد وملك نفسه فخضع لإرادة الله".
وفي عشية اليوم المعيّن لسفره سأل الأب بوسكو قائلاً:
- ماذا يصنع المريض ليستحق الثواب عند الله؟
- يقدم آلامه كلّها لله.
- وغير هذا، ماذا بوسعه أن يصنع؟
- يمكنه أن يقدم حياته لله قرباناً.
- تؤكد لي ان خطاياي كلها قد غفرت؟
- إني اؤكد لك، باسم الله، أن خطاياك قد غفرت.
- أخلاصي أكيد إذا؟
- نعم، برحمته تعالي التي لا تخذلك.
- وإن أتاني الشيطان مجرباً، بمَ أجيبه؟
- أجبه أنك بعت نفسك للسيد المسيح لأنه اشتراها بدمه.. ليقودها للفردوس.
* في الفردوس، هل أرى أقراني وأهلي؟
- نعم، في الفردوس ترى كل ما يحدث للمعهد؛ هناك ترى أهلك وكل ما يخصّهم وأشياء أخرى كثيرة أجمل.
-هل أستطيع أن آتي لأزوركم؟

- تستطيع، إن كان ذلك يؤول إلى مجد الله الأعظم...
ولما اسفر الصباح حضر مع رفقائه رياضة الميتة الصالحة وهو يقول "يجب أن اتقن هذه الرياضة لأني أظنها الأخيرة" ...
ثم بعد هنيهات قضاها في ترتيب أمتعته كانت ساعة الوداع.
فراح والابتسامة لا تفارق شفتيه يقول كلمة لهذا ونصيحة لذاك، يرشد الواحد و يشجع الآخر كما كان يفعل مع أعضاء أخوية الحبل بلا دنس.
وكان مديناً لأحد أصدقائه بفلسين فدعاه وقال له مازحاً "تعال نصفّي حسابنا، وإلا فقد يكون هذا سبب صعوبات في تصفية الحساب مع الله"...
ثم ذهب إلى الأب بوسكو وقال له: "لا تريد إذا ايواء جسدي التلف هذا، بل يجب أن أذهب به إلى مندومنيه. لقد أزعجتك أياماً قلائل. ثم يقضي الأمر. على كل حال لتكن مشيئة الرب. إذا ذهبت إلى رومية أذكر للبابا قضيّة إنجلترا. أطلب لي ان اموت ميتة صالحة؛ إلى اللقاء في الفردوس"
ثم توجه إلى الباب وهو يقبض بشدة على يد الأب بوسكو؛ وهناك خاطب رفقائه لآخر مرة قائلاً: "إلى اللقاء إلى اللقاء جميعاً؛ صلوا لأجلي، إلى اللقاء هناك حيث سنكون دائماً مع الله".
ولما ازمع ان يخطو الخطوة النهائية للخروج من المعهد التفت ثانية للأب بوسكو وقال له : " أعطني هدية تذكّرني إياك
-قل لي أي هدية تعجبك فأعطيك حالاً أتريد كتاباً ؟
- كلا، أفضل من هذا.
- أدراهم للسفر؟
- نعم، نعم دراهم للسفر إلى الأبدية. قلت إن البابا منحك غفرانيات كاملة خصوصيّة من أجل المائتين، فاشكرني بها.
- حسناً، سأذهب حالاً لأسجل اسمك بين المشتركين. ويمكنك أن تخبر كاهن رعيّتكم بذلك إذا ما..."
وانقطع عن الكلام لأنه شعر بأنه لن يقوى على امساك الشهيق في صدره.
كيف لا وهو يرى دومنيك يفارقه وأي فراق... دومنيك، ابنه المفضّل الذي أحبه حباً عظيماً والذي وجد فيه أكبر معين له على تخليص أبناءه في المعهد ! ...

ولكن لا بدّ من الإسراع فالعربة تنتظر دومنيك. حينئذٍ مال دومنيك على يد الأب بوسكو وطبع عليها قبلة حارّة أفرغ فيها أصدق ما يكنّه قلبه من عواطف الشكر نحو ذلك الأب الذي سهر عليه سهر الوالد على ولده!

هكذا ترك دومنيك المعهد الذي عاش فيه ثلاث سنوات وقد خلف وراءه أثراً لا يمحى، أثر طهر وتقى واعمال صالحة كان يستفيد منها المعلمون والطلاب على السواء...

بعد أربعة أيام من وصول دومنيك إلى البيت، اشتدّت وطأة الداء عليه بحيث قضى الطبيب بضرورة لزوم الفراش. وقد عالجه بالفصاد ظناً منه أنه مصاب بالالتهاب. وظهر له أن حاله مربضه قد تحسنت على إثر هذه الجراحة. ولكن دومنيك لم ينخدع مع من انخدع بل كان، على حدّ قول الأب بوسكو "يعد الأيام والساعات كما لو كان يحل مسائل طرح يصغر حاصلها تدريجيّاً" . لذلك بعد خروج الطبيب قال لوالده "والآن نستشير الطبيب السماوي. أريد أن اعترف وأتناول الزاد الأخير". بهت والداه لهذا الطلب ولكنّهما فضّلا أخيراً النزول عند رغبته. فجاءه الكاهن يحمل السيد المسيح. فقبل دومنيك ربّه بحرارة تناوله الأول، ثم مسحه الكاهن المسحة الأخيرة بينما كان دومنيك يردد كلمات الندامة وطلب الرحمة والمغفرة.

ثم انقضى يومان هما الأخيران من حياة دومنيك على هذه الفانية وقد حافظ فيهما على ابتسامته ولطفه نحو من يحيط به.

مرّت الأيام فبزغت شمس اليوم التاسع من آذار سنة 1857 ولم يظهر، حتى الظهر، تغيّر في حالة دومنيك لكن عملية الفصاد العاشرة جاءت لتقضي عليه. مرّ به كاهن الرعية في الساعة السادسة من المساء ليزوره فدهش من هدوءه وقال: "إنه غنى عنّي لأنه على تمام الاستعداد" . ومع ذلك فقد تلا معه بعض صلوات. ولما أراد أن يفارقه دعاه دومنيك قائلاً:

-أبت، لا تفارقني قبل أن تترك لي ذكرى منك.

- لعمري، لست أدري أي ذكر أترك لك.

- ذكرى يقوّيني.

- إذاً، فكّر في آلام المسيح. هذا كل ما عندي!

-الشكر لله. لتكن آلام سيدنا يسوع المسيح دائماً على شفتي وفي قلبي.

أغفى دومنيك بعد ذهاب الكاهن لمدة نصف ساعة ولمّا استيقظ نظر حوله وإلى أبيه وأمه ثم قال لوالديه :

- "أبي، حانت الساعة.

- ها أنا، بنيّ، ماذا تريد؟

- خذ يا أبي كتاب الصلاة واقرأ عليّ صلوات الميتة الصالحة.

سمعت أمه هذا فغلبها الشهيق وأرخن العنان لدموعها: فقد ثبت لها أن بكرها وحبيبها لن يشفى من مرضه. ثم خرجت من غرفة المريض لتخبئ عنه حزنها بينما عزّاها بقوله اللطيف "لا تبكي، يا أمي : إني منطلق إلى الفردوس".

وفي الوقت نفسه تناول الوالد الكتاب المطلوب ثم شرع يتلو الصلوات الموماً إليها بصوت متأثر متقطع يجيب عليه.

أخيرا أنهى الوالد الصلاة قائلاً : "عندما تمثل نفسي أمامك وترى للمرّة الأولى بهاء جلالك، لا تردّ وجهك عنها، بل اقبلها في أحضان رحمتك، فأشيد للدوام بمدائحك".

عند ذلك استنار وجه دومنيك وفتح ذراعيه، ولمع بريق سماوي في عينيه وقال : "نعم، والدي، هذا كل ما أريد : أن أشيد إلى الأبد بمدائح الرّب" .

ثم سقط من جديد على فراشه كأنه ينام. أخيراً، استيقظ فجأة وقال بصوت واضح فَرِح :

" الوداع، أبي، الوداع ! ... أراد كاهن الرعية أن يقول لي شيئاً... لكني لست أذكر... "

وبعد لحظات فتح عينيه وكأني به يريد امساك شيء يتجه نحوه وصرخ قائلاً " آه ! ما أجمل ما أرى!"

قال هذا وضمّ يديه ببطء على صدره والابتسامة لا تزال على شفتيه ثم سقط على فراشه وقد استودع نفسه الطاهرة بين يدي أمه السماوية دون عذاب أو ألم.

ويضيف الأب بوسكو في نهاية وصفه لهذه الميتة الصالحة، فيقول : "ألا اذهبي إلى خالقك، أيتها النفس الأمينة، فالسماء تفتح بك ابوابها، ويهيء لك الملائكة والقديسون عيداً عظيماً. هوذا يسوع الذي أحببته كثيراً يدعوك قائلاً: هلمّ، أيها الخادم الصالح والأمين، هلمّ؛ لقد حاربت

وانتصرت : تعال الآن ورث الفرح الذي لن تفقده إلى الأبد : أدخل إلى فرح ربّك " ...

قد بُلّغ الكمال في أيّام قليلة فكان مستوفياً سنين كثيرة. (حكمة:13،4)

أين غلبتك، أيها الموت وأين شوكتك، أيها الموت. (1 كورنتس: 15؛55)

كريم في عيني الرب موت أصفيائه (مز: 115؛15)

"محبوب عند الله والناس، مبارك الذكر"

في اليوم الحادي عشر من آذار، يوم الاحتفال بجنازة دومنيك في قرية مندومنية، وصلت إلى الأب بوسكو في طورينو رسالة تاريخها 10 من الشهر نفسه، تبيّن قوة إيمان والد دومنيك؛ إليك نصّها:

"أبت المحترم،

أنقل إليكم والدموع ملء عيني، خبراً محزناً: إن ولدي العزيز دومنيك، تلميذكم، هذه الزنبقة البيضاء، لويس غنزاغا الثاني، رقد في الرّب في التاسع من هذا الشهر متقبّلاً الاسرار المقدّسة والبركة البابوية.

وهذه تفاصيل مرضه: لزم الفراش في 4 آذار؛ وقد عالجه الطبيب كافاسّو بالفصاد عشر مرّات. وفيما كنا ننتظر نتيجة العلاج لنكتب لكم وافته المنية. كان وقتئذٍ مصاباً بسعال شديد. لست أدري ماذا أقول لحضرتكم عذا هذا سوى أني أقدم لكم فائق احترامي متمنّياً لكم كل النجاح واني ابقى خادكم المطيع.

ما أن وقع نظر الأب بوسكو على دومنيك وتبادلا اطراف الحديث حتى تحابا ونشبت بينهما علاقات ودّية لم يقوَ الموت نفسه على فصمها. فقد عاد دومنيك وزار الأب بوسكو، بعد تسعة عشرة سنة من وفاته، في حلم شهير دام طول الليل. وكذلك بقي الأب على حبّه لتلميذه، فألّف ترجمة حياته وقدمها مثالاً لسائر تلاميذه ليقتدوا به.

وليس الأب بوسكو هو الوحيد الذي أحب هذا الصبي فقد أحبه ايضاً جميع الطلّاب الذين نعموا به رفيقاً في معهد الأب يوحنا بوسكو.

وارى تراب القبر رفات دومنيك في الحادي عشر من آذار سنة 1857، ولكم منذ ذلك الوقت شق اسمه جدران المعهد السالسي في طورينو وأخذ يشهّر رويداً رويداً، بفضل ترجمة حياته التي كتبها الأب بوسكو اولاً

والمنسنيور سالوتّي فيما بعد، حتى اخترق أخيراً أسوار المدينة الخالدة وجدار القصر البابوي وانطبع على شفتي المتبوئ العرش فيه. استلذّ قداسة البابا بهذه السيرة الملائكية وأخذ يطيل التمتع بعذوبتها ويختبر ما فيها من نور حتى فطن إلى ضرورة رفع هذا السراج فوق المكيال ليستنير بنوره كل من يسكن بيت هذا العالم، فجرى بين قداسة الحبر الأعظم القديس بيّوس العاشر والمنسنيور سالوتّي محامي دعوى تطويب دومنيك هذا الحديث:

- أين أنتم من دعوى سافيو الصغير؟

- إنها في تقدّم. ولكن أتسمح لي قداستكم أن أسألكم رأيكم في هذا الفتى؟

-رأيي؟ إنه المثال المنتظر لشاب عصرنا. إنه الفتى الذي صان حتى الموت براءة عمّاده، والذي لم يظهر طيلة خمس عشرة سنة أية نقيصة ولو صغيرة، إنه لقديس ! ماذا ينقصه، يا ترى ؟ ليدعَ هكذا ...

في الثالث عشر من آب سنة 1915 استقبل قداسة البابا بندكتس الخامس عشر الأب فرنتشيزيا، معلّم دومنيك. وكان ممّا قاله له عن تلميذه : "فما ألطفه مع الجميع، وهو الفتى الذي ينعش اللعب بوجوده وحركته. إن عصرنا لا يحب ان ينظر إلى القديسين في تقشّفهم وعبوسهم. إني لواثق كل الثقة من أن فتياننا سيعجبون بدومنيك سافيو ويحبونه إذ يرون فيه فتى مثلهم ومنهم" ....

ومما قاله قداسة البابا بيوس الحادي عشر في تقريظ دومنيك بعد أن اعترف ببطولة فضائله : "إن هذا الفتى وُجد كاملاً ولمّا ينه الخامسة عشرة من عمره، وقد تجلّت فيه بنوع خاص هذه الفضائل الثلاث التي تحملنا على تقديمه مثالاً لشبّان عصرنا. اعني الطهارة والتقوى والغيرة"....

وقد جاء مصدقاً لهذه الأقوال ما كتبه أحد تلاميذ فالدوكّو في مسابقة إنشاء حول قداسة دومنيك سافيو.

"لقد اعتدت ان أرى بين القديسين شيوخاً تزيدهم لحيتهم الطويلة جلالاً ووقار، واساقفة يزيّن التاج رأسهم، وكهنة رزينين، وهباناً علماء، ونساء يرتدين الثوب الراهبات؛ لكني لا أذكر أني شاهدت بينهم صبياً ارتسمت على وجهه آيات السرور كسائر الأولاد. أما الآن فها هو دومنيك سافيو

الذي قدّس نفسه بالفرح والذي اصبح محامياً لجميع الأولاد لأنه يبعث فينا الثقة أكثر من غيره".

لا عجب إذاً أن تقدّمت دعوى تطويب دومنيك وتقديسه فهو المثال المنتظر. ففي الخامس من آذار سنة 1950، تمّ ما تنبّأ به الأب بوسكو سنة 1862 حين قال : إذا ما واصل دومنيك اجتراح المعجزات، لا أِك، إن عشت ريثما أنقل دعواه إلى رومية، لا أشك بأن الكنيسة ستأذن بإكرامه، على الأقل في معهدنا هذا". تمت هذه النبوءة لأن الكنيسة منحت دومنيك في ذلك اليوم لقت "طوباوي"

ثم ما زالت دعواه في نجاح مطّرد في هذه السنين القليلة الأخيرة، حتى رُفع دومنيك نهائياً فوق الهياكل وقدّم شفيعاً للصبيان والشبيبة في العالم كله. ففي يوم الثاني عشر من حزيران سنة 1954، في الساعة الخامسة إلا ربعاً زواليه نقلت مكبّرات الصوت كلمات قداسة البابا بيوس الثاني عشر المالك سعيداً، التي سجّل بها خليفة القديس بطرس بملء سلطته المعصومة من الغلط، الطوباي دومنيك سافيو في لائحة القديسين. وعند ذاك لم يقوَ جمهور الشباب المتحمّس المتقاطر من جميع انحاء العالم المحتشد في ساحة القديس بطرس التي ضاقت بهم على رحبها، لم يقوَ على امتلاك نشوة الفرح فأفلت منه تصفيق دونه هدير امواج البحر المتلاطمة وقصف الرعد ضجّة، بينما بحّت الحناجر من الهتاف بحياة البابا والقديس الجديد: "ليحيَ البابا... ليحيَ بابا دومنيك سافيو...."

الصدّيق يكون ذكره إلى الأبد (مز 111؛7)
نقصته عن الملائكة قليلاً وكللته بالمجد والكرامة (مز : 8؛6)